



الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

السفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ : لَا يَتَّكِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة/ ١٢٤].

في هذه الآية الكريمة دراسات وأبحاث قرآنية شائقة:

منها الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها عبده وخليته ورسوله إبراهيم عليه السلام:
«وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ».

وتمام إبراهيم لهذه الكلمات «فَأَتَمَّهُنَّ». وهي شهادة من الله تعالى لإبراهيم، وناهيك بها، في فضله ودرجته عند الله.

ومنها الإمامة التي أناطها الله تعالى بإبراهيم بعد أن أتم هذه الكلمات، وعلاقة الإمامة بالكلمات.

وهل هي النبوة، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً، عندما أتم بعض هذه الكلمات، أو هي شأن آخر غير النبوة، وهو ما نرجّحه، بل نقطع به.

ومنها الشرط الذي تقرّره الآية الكريمة للإمامة «لَا يَتَّكِلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»، عندما طلب إبراهيم عليه السلام الإمامة من الله تعالى لذريته، فاستجاب الله تعالى لدعائه، ثم بيّن الله تعالى له أنه لا يعهد بالإمامة إلى الظالمين من ذريته.

وما هو معنى الظلم الذي يمنع من الإمامة؟

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

وهل يمنع التلبس بالشرك والظلم من الإمامة في آونة من العمر، أو أن الآية الكريمة تقرر أن الله تعالى لا يعهد بالإمامة إلى من يتلبس بالظلم حال التلبس.

تلك وغيرها أبحاث ودراسات، في هذه الآية الكريمة، ونحن في هذه الدراسة نتناول البحث عن «الكلمات الإبراهيمية» إن شاء الله.

الابتلاء في حياة الأنبياء

الابتلاء سنّة إلهية عامّة في حياة الناس، وعلى سلّم الابتلاء يرقى الناس إلى لقاء الله تعالى وقربه، ومهما كان حظّ الإنسان من الابتلاء، ونجاحه في تجاوزه أفضل يكون وقربه إلى الله تعالى أكثر.

ففي الابتلاء يتضرّع الإنسان إلى الله ويكدح إلى الله، ويقوى عوده على مقاومة الهوى. ويرقى إلى لقاء الله تعالى وقربه.

ولا تستثني هذه السنّة الإلهية الأنبياء ﷺ. بل إن الأنبياء أكثر الناس حظاً من الابتلاء، ومراتبهم عند الله تعالى في القرب هي درجاتهم في تجاوزه.

وإليك طائفة من الشواهد على ابتلاء الأنبياء.

١ - ابتلاء آدم ﷺ:

وأول ما ابتلى الله تعالى أبانا آدم ﷺ بالشجرة الممنوعة.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ، فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة/ 35 - 37].

ومهما يكن أمر هذا الابتلاء، ومهما تكن قصة الشجرة الممنوعة، فقد كان هذا الابتلاء أول ابتلاء في تاريخ الإنسان، وكان هو السبب، كما نفهم، في دخول الإنسان دار التكليف.

● الشيخ محمد مهدي الأصفي

٢ - ابتلاء يوسف عليه السلام :

وابتلى الله تعالى يوسف الصديق عليه السلام بامرأة العزيز، فعصمه الله تعالى من هذه الفتنة التي تقول عنها امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف/٣٢]، وأثر السجن على معصية الله: ﴿قال: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف/٣٣].

وخرج منها منتصراً على الشيطان. فاتاه الله على ذلك الحكم والعلم: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف/٢٢].

وبقي يوسف عليه السلام، رغم هذا الانتصار على الشيطان، يدعو الله تعالى أن يصرف عنه كيدهنَّ، ويرفع إلى الله تعالى فقره وضعفه وعجزه له ليمده برحمته وتوفيقه وهدايته: ﴿وإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف/٣٣ و٣٤].

وأصل القصة، كما يحدثنا الله تعالى عنها، في كتابه، هو:

﴿ورَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ. قال: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون * ولقد هممت به، وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف/٢٣ و٢٤].

٣ - ابتلاء ذي النون عليه السلام :

ومن نماذج ابتلاء الأنبياء ابتلاء يونس عليه السلام في بطن الحوت، في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. فسبح لله تعالى، وأناج إليه، واستغفره سبحانه، فاستجاب الله تعالى له، ونجّاه من سجنه.

يقول تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فنادى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء/٨٧ و٨٨].

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

٤ - ابتلاء موسى ﷺ :

ومن أكثر الأنبياء ابتلاءً كلِّم الله موسى بن عمران ﷺ فقد ابتلاه الله بكلمات كثيرة فأتَمَّهُمْ، وآتاه الله تعالى الحكم والثبوة .

وها نحن نذكر نماذج مما ابتلى الله تعالى به عبده وكلِّمه موسى بن

عمران ﷺ .

منها ابتلاؤه بدعوة طاغية عصره إلى عبادة الله تعالى وإطلاق سراح بني إسرائيل، وكان ابتلاءً صعباً أن يدخل موسى ﷺ على طاغية عصره ليدعوه بدعوة الله تعالى .

ونقرأ قصة هذه الدعوة في سورة طه :

﴿إِذْ هَبَّتْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بآيَاتِي وَلَا تَنِيَّاءَ فِي ذِكْرِي * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيئًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا: رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى * قَالَ: لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنَ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ مِنْ اتَّبِعِ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ: فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ: عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ . [طه/٤٢ - ٥٢] .

ومن ذلك ابتلاؤه، بعد عودته من ميقات الله، سبحانه وتعالى، بضلالة

السَّامِرِيِّ، وعبادته العجل، ودعوته بني إسرائيل إلى عبادة العجل .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ: ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَكْفُلُونِي فَلَا تَشْمِثْ بِمِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُفْتَزِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف/١٥٠ - ١٥٣] .

ومن ذلك ابتلاء موسى عليه السلام باتباع العبد العالم، وكان ابتلاءً شاقاً على كليم الله عليه السلام، ولكنه كان يخضع بكل أدب النبوة لهذا الابتلاء الصعب، مرة بعد أخرى، حتى بلغ العبد العالم من لدن كليم الله عليه السلام عذراً، فافترقا بعد أن قضى موسى عليه السلام معه جولة من الامتحان الصعب الذي كان لا بد له من أن يجتازه معه. واستمع إلى قصة هذا الامتحان العسير في سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ: إِنَّا وَعَدَانَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فارتدَّا على آثارهما قصصاً * فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمةً من عندنا وعلمناه من لدننا علماً * قَالَ لَهُ مُوسَى: هل أتيتك على أن تُعلِّمَني ممَّا علِّمتَ رُشدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وكيف نُصَبِرُ على ما لم نُحِطْ به خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال: أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قال: ألم أقل إنك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قال: لا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فانطلقا حتى إذا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ: أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قال: ألم أقل لك إنك لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قال: إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضَيِّفُوهُمَا فوجدوا فيها جداراً يَريدُ أن يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ: لو شئت لَأَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ اجْرًا * قال: هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُكِدَّ لَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

أَشَدُّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿[الكهف/ ٦٠ - ٨٢].

٥ - ابتلاء إبراهيم ﷺ بالكلمات:

وابتلى الله تعالى إبراهيم أبا الأنبياء بكلمات، فأتَمَّهَن كما يقول تعالى: ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾.

ويذهب بعض المفسرين مذاهب مثيرة للاستغراب في تفسير هذه الكلمات، ومن ذلك ما رواه بعضهم أنَّ هذه الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة، وهي قصّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وتقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء، وهي مجموعة تعليمات صحيحة مندوبة في الشريعة.

يقول الشيخ محمد عبده في التعليق على هذه الرواية:

إن هذا من الجرأة الغربية على القرآن، ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين، ليأخذوا دينهم هزواً، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور، وأثنى عليه بإتمامها، وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماماً للناس، وأصلاً لشجرة النبوة.

وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي متميز لسهل عليه إتمامها، ولم يعد ذلك أمراً عظيماً^(١).

ويقول الشيخ رشيد رضا صاحب تفسير المنار: كتب إلي رجل من المشتغلين بالعلم في سوروية، كتاباً، عقب قراءته رأي الشيخ محمد عبده في تفسيره هذه الآية في مجلة المنار يقول فيه: إن تفسير الكلمات بخصال الفطرة مروّج عن ترجمان القرآن ابن عباس، فكيف يخالفه فيه، وشدد النكير في ذلك، وأطنب في مدح ابن عباس.

وقد أرسل إلي الأستاذ كتابه عند وصوله، وكتب عليه: الشيخ رشيد يجب هذا الحيوان.

فكُتبت إليه، وكان صديقاً، كتاباً لطيفاً، كان ممّا قلته فيه على ما أتذكّر:

إننا لم نر أحداً من المفسرين، ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه، وإن صحّ سنده، فكيف إذا لم يصح، وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يجلب ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدّقها^(٢).

ومناقشة الشيخ محمد عبده لهذه الروايات مناقشة صحيحة وممتينة... ولكن الشيخ، مع ذلك، لا يريد أن يأخذ بما ورد في القرآن مما حدثنا الله تعالى عنه من ابتلاءات ابراهيم العظيمة، ومن أعظمها ابتلاء ابراهيم بما رآه في المنام من ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، ويناقش ذلك بمناقشات غير واضحة، فيقول: وإنما هذا الأمر كلمة واحدة جعلوها عشراً، ولست أعتقد بوجاهة هذه المناقشة، فلم يرد في القرآن تحديد لعدد الكلمات، ثم إن ما يحدثنا القرآن الكريم به من ابتلاءات ابراهيم عليه السلام ليس بواحدة، وإنما هي كثيرة، قد تبلغ العشر وقد تزيد. وفي رأيي أن تفسير «الكلمات» بما ورد في القرآن من موارد ابتلاء الله تعالى لعبده وخليله ابراهيم عليه السلام لا يمكن أن يغيب عن فكر الشيخ الثاقب. ولكن الشيخ رحمه الله يريد أن يتجنب هذا التفسير، لما يؤول إليه أمر هذا التفسير من فصل الإمامة عن النبوة أولاً، واشتراط الإمامة بعدم تلبس الإمام بالظلم في حياته ثانياً، وهذا ما لا يريد الشيخ الإقرار به، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يفصح عن سبب ذلك.

استخراج الكلمات من القرآن

والقرآن نفسه خير مصدر، نستخرج منه هذه الكلمات. إذ أولى القرآن الكريم حياة ابراهيم عليه السلام عناية كبيرة. وشرح لنا أدواراً عديدة من حياة أبي الأنبياء عليه السلام وما ابتلاه الله تعالى به من ابتلاءات صعبة في مقاطع مختلفة من حياته، وبإمكاننا أن نستخرج من كتاب الله طائفة من هذه الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها رسوله و خليله من غير عناء أو جهد.

ونحاول، في ما يأتي، أن نستخرج من كتاب الله ابتلاءات عشرة، ابتلى بها الله، تعالى، ابراهيم. وهذه الابتلاءات العشرة تنظمها محاور ثلاثة. ولسنا نقول:

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

إنها هي التي ابتلاه الله تعالى من الكلمات، وإنما نقول: إن بعض هذه الكلمات منها، وإنها مما ابتلاه الله تعالى بها، وهي ابتلاءات صعبة، والمحاور الثلاثة هي:

١ - محور الإيمان بالله .

٢ - محور الدعوة إلى الله .

٣ - محور الفتنة والابتلاء .

وإليك تفصيل هذه الكلمات على هذه المحاور الثلاثة من كتاب الله .

أولاً: كلمات الإيمان بالله

نجد، على هذا المحور، في القرآن، ثلاث كلمات ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام، وهذه الكلمات الثلاث هي:

انتزاع النفس من الباطل .

التوجه إلى الله (الحق) .

والولاء لله والبراءة من أعدائه .

فهذه الكلمات الثلاث أتمهنَّ إبراهيم عليه السلام في المرحلة الأولى من حياته .

والكلمة الأولى التي أتمها إبراهيم عليه السلام، أنه انتزع نفسه من سلطان الأصنام وسلطان الوسط الاجتماعي وثقافة الشرك بالله، وكانت هذه الخطوة بداية انطلاق إبراهيم عليه السلام في رحلته الشاقّة إلى الله .

والخطوة الثانية هي الإقبال على الله، بعد أن انتزع نفسه من سلطان الأصنام «وجيّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» .

ولا تتمّ الخطوة الثانية إلا بعد أن تتمّ الأولى، ولا يتمّ التوحيد في الإيمان بالله، إلا بعد الكفر بالأصنام والطاغوت .

والخطوة الثالثة هي الولاء لله والبراءة من أعدائه نتيجة طبيعية للخطوتين الأولى والثانية، فإذا أعرض الإنسان عن الباطل وأقبل على الله، فلا بدّ من أن ينظّم علاقاته مع الناس على أساس هذا الإعراض والإقبال، فيوالي الله تعالى، ويوالي كلّ من يوالي الله، ويتبرأ من الأصنام والطاغوت، ويتبرأ ممّن يوالي الطاغوت .

● الشيخ محمد مهدي الآصفي

وهذا الإقبال، والأدبار، والوصل، والفصل من متطلبات الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

وإليك تفصيل هذه الكلمات الثلاث في حياة إبراهيم عليه السلام من القرآن.

١ - انتزاع النفس من الباطل :

إنَّ للباطل سلطاناً على نفس الإنسان، ومصادر هذا السلطان متعددة. فللباطل ثقافة، وإعلام، وتاريخ، وإغراء، وإرهاب، ومواقع في المجتمع، وفن. وينفذ الباطل إلى نفس الإنسان، وعقله، بجميع هذه الأدوات ومن منافذ مختلفة في النفس، فيحكم الإنسان ويرسخ في نفسه، ويتمكن منه، وعندئذٍ يحتاج الإنسان لكي ينتزع نفسه من سلطان الباطل إلى قوة نفسية هائلة. ولقد آتانا الله تعالى هذه القوة الهائلة من دون ريب، ولكن القليل من الناس من يستخدم هذا العزم في مقاومة الباطل وسلطان الهوى على النفس، ويتحرر منهما.

ولا تتمثل مشقة التحرر من الباطل، دائماً، في التباس الحق بالباطل، فقد يكون جزء من هذه المشقة في انتزاع النفس من سلطان الباطل، ولكن شطراً كبيراً من محنة الإنسان وابتلائه في صعوبة انتزاع النفس من الباطل، حتى بعد أن يعرف الإنسان الحق والباطل من دون لبس.

وقد تأخذ الإنسان العزة بالباطل، فيدفع نفسه ثمناً له. وهذا هو سر سلطان الباطل على النفس، وصعوبة انتزاع النفس منه.

وابراهيم عليه السلام نبي معصوم، عصمه الله تعالى من الباطل والشرك، قبل النبوة وبعدها، ولكن ذلك لا ينفي أنه عليه السلام كان يعيش في أجواء هذا السلطان الذي كان للباطل على عقول الناس ونفوسهم وأنه انتزع نفسه من سلطانه.

ويقصّ علينا القرآن قصة ابراهيم عليه السلام في مكافحة سلطان الباطل على نفسه، ويرينا كيف انتزع نفسه من عبادة النجوم، وكيف رفضها وأعرض عنها. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ: هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ: هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: لئن لم يَهْدِنِي

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ: هَذَا رَبِّي، هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفْلَتَ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام/ ٧٦-٧٨].

ويبدو لي أنَّ الحوار الذاتي الذي تعرضه الآية الكريمة لابراهيم عليه السلام مع نفسه حوار رمزي يرمز إلى الطريقة التي انتزع ابراهيم عليه السلام بها نفسه من سلطان النجوم والقمر والشمس، وهذا الأسلوب من الحوار الرمزي شائع في القرآن الكريم لمن يألّف أسلوبه نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟﴾ فلم يقل ابراهيم عليه السلام للقمر لما رآه بازغاً: هذا ربي. ولكن هذا الحوار يرسم الجهد النفسي الذي مارسه ابراهيم عليه السلام على نفسه، بينه وبينها لينتزعها من سلطان الشرك في مجتمعه ووسطه.

والذي يلفت النظر في هذا الحوار التدرج والتسلسل الذي تشير إليه الآية الكريمة من «الحسن» إلى «العقل» ومن العقل إلى «القلب».

فإن المحطة الأولى، في هذه الرحلة التي تشير إليها الآية الكريمة، هي «الحسن»؛ حيث يتلقف «أفول» النجم والقمر والشمس، وهي بالتأكيد حالة محسوسة.

و «العقل» هو المحطة الثانية في هذه الرحلة، حيث يحكم ببطلان الأفول، ويجزم بأن الأفول لا يمكن أن يكون رب هذا الكون. و «القلب» هو المحطة الثالثة، في هذه الرحلة، ومهمة العقل أن يحب أو لا يحب. ﴿فَلَمَّا أَفْلَ قَالَ: لا أَحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ ومع الحب كره وبراءة ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وحيث يجزم العقل ببطلان شيء يرفض القلب أن يحبه، وإذا جزم العقل بالحق أحبه القلب، فالقلب يستلم من العقل، والعقل يستلم أصول حكمته من الحسن... وهذه هي مدارج المعرفة بصورها القرآن، في هذا الحوار الذاتي الذي يغلب عليه جانب الرمز ولا يعتمد ابراهيم عليه السلام عقله، بشكل مطلق، في هذه الرحلة، فما أكثر ما تزل العقول والقلوب وإنما يستعين بالله تعالى، واثقاً أنه إذا لم يعنه في تجاوز هذه المرحلة، فلا يستطيع أن يقطع هذه الرحلة الشاقة إلى نهايتها وغايتها: ﴿لئن لم يهديني ربي لأكوننَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

٢ - التوجه إلى الله :

وهذه هي الكلمة الثانية في الرحلة الإبراهيمية . فقد أعطى ابراهيم عليه السلام وجهه لله تعالى ، بعد أن انتزع وجهه وقلبه من الباطل وأعلن براءته ممّا يشركون به : ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ . . . بعد أن انتزع وجهه وقلبه ممّا كانوا يشركون أعطى وجهه لله تعالى ، فقال : ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام/٧٩] .

وكما أن الإنسان ليس له إلا قلب واحد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب/٤] فإنّما أن يكون قلبه للحق أو للباطل . .

كذلك ليس للإنسان إلا وجه واحد ، فإنّما أن يكون وجهه للحق أو للباطل ، فإذا انتزع وجهه من الباطل كان له أن يعطي وجهه لله ، ولا يتمكن أن يشطر وجهه شطرين ، فيعطي شطراً من وجهه لله ، ويعطي الشطر الآخر لما يشركون من دون الله ، كما لا يمكن أن يشطر قلبه شطرين ، فيعطي شطراً منه لله ، ويعطي الشطر الآخر لما يشركون . والقرآن يرفض الشرك في القلوب والوجوه معاً .

وابراهيم عليه السلام ، إذ ينتزع وجهه وقلبه من الباطل ، يعطي وجهه وقلبه لله . وحيث انتزع ابراهيم عليه السلام قلبه ووجهه ممّا يشركون وأعطاهما لله تعالى وحده . . . رفعه الله درجات وآتاه الحجة على قومه ، وجعل النبوة في ذريته .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين ﴿[الأنعام/٨٣، ٨٤] . وهذه سنة وقانون ، وليست استثناء يختص به ابراهيم عليه السلام ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ .

٣ - الولاء والبراءة :

وهذه هي الكلمة الثالثة في الرحلة الإبراهيمية . فلا يقتصر الأمر ، في هذه الرحلة ، على الإيمان بالله والكفر بالطاغوت «على الصعيد العقلي» ، وعلى حب الله

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

ورفض الطّاغوت، «على صعيد الحب والعاطفة»، وإنما يستتبع هذا الإيمان والكفر موقعاً عملياً في الولاء والبراءة.

الولاء لله ولأولياء الله، والبراءة من الطّاغوت وحزب الطّاغوت.

إن الإيمان بالله والكفر بالطّاغوت قضية نظرية تستتبع حباً وبغضاً أولاً، ومنهجاً في السلوك والتحرك ثانياً، وتنظم علاقات الإنسان ثالثاً.

فينتزع الإنسان من شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية، ويدخله في شبكة أخرى من العلاقات الاجتماعية والسياسية. وهذه هي شبكة الولاء.

والى جانب كلّ ولاء براءة، فالإيمان بالله والكفر بالطّاغوت إذاً يتظلمان علاقات الإنسان على أساس وتصوّر جديدين، يرتبطان بهذا المحور، وقد أعلن إبراهيم عليه السلام لأبيه: (عمّه) وقومه انفصاله عنهم ومقاطعتهم لهم وبراءته ممّا يعبدون، وجعل هذه البراءة والمفاصلة كلمة باقية في أعقابهم، كما جعل التوحيد كلمة باقية في عقبه من بعده.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف/ ٢٦ - ٢٨].

ولما أصرّ عمّه على الشرك، ورفض الإيمان بالله لم يتردد إبراهيم عليه السلام في أن يعلن براءته منه.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة/ ١١٤].

وإنّ من أشقّ الأمور على الإنسان أن ينتزع نفسه مرّة واحدة من وسط علاقاته الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، فيعتزل قومه، ويهجرهم عندما يستدعي الأمر الاعتزال والهجرة.

ولما أعلن الفتية من أصحاب الكهف الدعوة إلى الله في أجواء البلاط ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف/ ١٤]. لم يجدوا بداً من أن يبتروا علاقاتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بترأ، ويعتزلوا قومهم، وما يعبدون من دون الله، ويأووا إلى الكهف.

﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف/١٦].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

«ولقد كُنَّا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم (الطريق الواضحة) وصبراً على مضض الألم وجِدّاً في جهاد العدو»^(٣).

هذه ثلاث كلمات في الإيمان بالله، ومنتقل الآن إلى كلمات الدعوة إلى الله.

ثانياً: كلمات الدعوة

وعلى محور الدعوة نجد في القرآن الكريم، لابراهيم عليه السلام أربع كلمات، هي:

١ - الدعوة إلى الله.

٢ - التحدي والمبادرة.

٣ - العزلة والهجرة.

٤ - إعلان الحج.

وإليك تفصيل هذه الكلمات من القرآن.

٤ - الدّعوة إلى الله :

ليس «الشرك» فكراً أو نظراً أو ثقافة فقط، ولو كان الأمر كذلك لم يجد الدّعاة إلى الله عناء كبيراً في الدعوة إليه، وإنما «الشرك» مواقع للنفوذ والسلطان في المجتمع، ولذلك فإن أئمة الشرك سوف يوظفون جميع الوسائل الممكنة لترسيخ أعمدته في المجتمع، ومحاربة الدعوة إلى الله، وتحويله إلى تيارٍ من الرأي العام. وعندئذ تكون الدعوة إلى الله اختراقاً لهذا التيار، ومواجهة ضاربه للشرك في مواقع نفوذه وسلطانه، ومن هنا تنشأ معاناة الدعاة إلى الله تعالى وصعوبة قيامهم بمهماتهم، فيأمر الله تعالى أنبياءه بالدعوة إليه ويدعوهم إلى ذلك:

تأملوا في آيات الدعوة في القرآن:

﴿أذهبوا إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه/٤٣].

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق/ ١].

﴿يا أيُّهَا الْمَذْتَرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر/ ١ و٢].

ويعد الله أنبياءه أن يعصمهم من الناس:

﴿والله يعصمك من النَّاسِ﴾.

ويدعو تعالى نبيه أن يصدع بالدعوة:

﴿فاصدِّعْ بما تُوَمِّرُ، واعرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ومن عجب أن الدعوة صدع، وفي الوقت نفسه إعراض وإغضاء عن جدال المشركين:

﴿وأعرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فإنَّ «الجدال» الذي لا يقصد به صاحبه الوصول إلى الحق من أسباب تعطيل دعوة الحق، وليس من منهج الأنبياء مواجهة هذا الجدل وأفضل أنواع المواجهة الإعراض عنه والإغضاء منه.

ويأمر الله نبيه ﷺ أن يدعو إليه ويستقيم، فلا يستقيم أمر هذه الدعوة من دون الاستقامة والثبات:

﴿فادعُ واستقم كما أمرت﴾ [الشورى/ ١٥].

ويأمر الله تعالى أنبياءه باللين في الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة لثلا ينفر الناس من الدعوة. يقول تعالى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل/ ١٢٥].

ويقول تعالى:

﴿إذهبَا إلى فرعونَ إِنَّهُ طَغَى * فقولا له قولاً لبيأً لعلَّهُ يتذكَّرُ أو يخشى﴾

[طه/ ٤٣ و٤٤].

ويدعو الله تعالى أنبياءه إلى الحزم والشجاعة في الدعوة، فلا يخشون أحداً إلا الله.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة/ ١٥٠].

﴿الَّذِينَ يُكَلِّمُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب/ ٣٩].

﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران/ ١٧٣].

وقد وعدهم الله تعالى أن يعصمهم من الناس.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رَسُولَةَ اللَّهِ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [المائدة/ ٦٧].

إذا الدعوة إلى الله صدى، وإعراض عن المشركين واختراق التيار، ومواجهة، وتحتاج إلى قوة وشجاعة وحزم، وإلى لين وسعة صدر، وإلى إغضاء وإعراض، وإلى حكمة.

وقد حمل إبراهيم عليه السلام وحده رسالة الدعوة إلى الله على وجه الأرض، في مواجهة الشرك كله، فكان عليه السلام وحده أمة ينهض بالدعوة ويجاهد الشرك.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل/ ١٢٠].

فكان إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى الله بالمنطق والحكمة، واللين والأدب. والحزم والشجاعة. فهو حازم وشجاع، لا يخاف أن يفتته قومه. وهو لين ورقيق معهم لا يريد أن ينفر عنه قومه.

وهو في الوقت نفسه يحاورهم بالمنطق والعلم والمعرفة فلا يجد له قومه جواباً إلا الإرهاب والتخويف.

ونسلم نماذج من هذه الدعوة في كتاب الله:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِكُونَ * قَالُوا: وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ *

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

قال: بل ربُّكُمْ ربُّ السماوات والأرض الذي فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهِدِينَ ﴿[الأنبياء/ ٥١ - ٥٦].

﴿إذ قال إبراهيم لأبيه آزر: اتَّخَذْ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أراك وقومك في ضلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام/ ٧٤].

﴿وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَم خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أوثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت/ ١٦ - ١٧].

﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لِأبيه: يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ: أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ: سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ [مريم/ ٤١ - ٤٧].

وفي هذا الحوار الذي ينقله القرآن بين إبراهيم وأبيه: (عمه) نقراً، من طرف أوّل، المنطق والمعرفة والإشفاق والرفقة ثم أدب الحوار. ومن طرف آخر نقراً انعدام المنطق والإرهاب والتعسف، (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

٥ - التحدي والمبادرة:

تعيش الدعوة بالتحدي والمبادرة، فإذا فقدتَهما فقدت ساحة عملها، ولم يُعَد لها دور في حياة الناس.

إنّ طبيعة عمل الداعية تطلب منه أن يلتزم دائماً جانب المبادرة والفعل، وأن يلجىء الطاغية إلى موقع رد الفعل والانفعال.

ولولا ذلك لا يتمكن الداعية من مواجهة الطّاغوت؛ إذ ليس من تكافؤ بين الداعية والطّاغوت في إمكانات العمل وفرص الحركة.

فإذا تمسك الداعية بالمبادرة والتحدّي، يضطرّ الطاغوت إلى اتّخاذ موقع الانفعال والدفاع. وموقع المدافع دائماً موقع ضعيف، مقابل موقع المبادر والمهاجم.

ورغم الإمكانيات الكثيرة التي يملكها الطاغية، من حيث القوة والمال والإعلام لا يترك له الداعية فرصة للفعل والحركة، فلا يكاد يخرج من موقع انفعال، إلا ليدخل في موقع انفعالي آخر.

والسبب في اختلاف الموقعين بين الداعية والطاغية كامنٌ في مهمة كلّ منهما. فإن قضية الداعية دعوة الناس إلى الله، وتحريرهم من الطاغوت، وهم الطاغية الاحتفاظ بنفوذه وسلطانه، واختلاف الموقع بينهما يجعل الداعية دائماً في موقع الفعل والقوة والطاغية في موقع رد الفعل، وهو موقع ضعيف دائماً.

ولا يضرّ بالداعية أن يكون قليلاً، فقد كان ابراهيم عليه السلام وحده ﴿أُمَّة قَانِتًا لِلَّهِ﴾.

ولنقرأ مبادرة ابراهيم عليه السلام في تكسير الأصنام في القرآن.

فقد وجد إبراهيم أن قومه بحاجة إلى «صعقة» قوية منبهة لينتبهوا، ويعودوا إلى رشدهم، فعزم على أن يكيد لأصنامهم، فيجعلها جذاذاً، عندما يجد إلى ذلك سبيلاً، فجعل يتربّب الفرصة ليدخل معبد الأصنام وحده، ويجعل الأصنام جذاذاً. حتى إذا خرجوا يوم عيد لهم خارج المدينة. . أسرع الفتى الشجاع إلى أصنامهم. . . والقصة في القرآن الكريم:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قالوا: من فعلَ هذا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قالوا: سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء/ ٥٧ - ٦٠].

ولم يفته أن يسخر منهم، وهو يريد أن ينهال عليهم ضرباً وتكسيراً، فيقدم لهم الطعام، ويقول لهم: ﴿ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون﴾.

لنقرأ القصة في مشهد آخر في سورة الصافات:

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

﴿وإنَّ من شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات/ ٨٣ - ٨٥].

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ * فَقَالَ: إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ * قَالَ: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا: ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات/ ٨٨ - ٩٨].

٦ - العزلة والهجرة:

إنَّ إعلان الدعوة لا ينفك عن العزلة والهجرة، لذا فإنَّ الدَّعوة إعلان للمواجهة والحرب في وجه الطَّاغوت والمؤسسات التابعة له. لأن دعوة التوحيد تدعو الناس إلى توحيد الله تعالى بالولاية والسيادة والحكم في حياة الإنسان.

والبعد الآخر لهذه الدعوة رفض كلِّ ولاية وحاكمية أخرى غير حاكمية الله تعالى وولايته وولاية من يأمر الله تعالى بولايته، وهذا الأمر بالذات إعلان للحرب والمواجهة، وهو أشرس أنواع الحروب، لأنه حرب على القدرة والسلطان والنفوذ، وهذه الحرب صلب دعوة التوحيد.

وفي هذه المعركة يستخدم الطَّاغوت جميع إمكاناته وقدراته لاستئصال حَمَلَة الدعوة وإبادتهم واضطهادهم، بغية تعطيل دورهم في المجتمع.

وخير ما يمكن أن يواجه به الدعاة هذه الحملة الشرسة هو الاعتزال والهجرة.

والاعتزال غير الهجرة، في الاعتزال يخرج الدعاة عن دائرة النفوذ السياسي والحصار الاعلامي للعدو.

وفي الهجرة يخرجون عن قبضة الإرهاب، ويسلمون من أشرس حملة يقوم بها الطَّاغوت لاستئصال الدعوة.

يخرجون عن قبضة إرهاب العدو، ويسلمون، وتسلم بسلامتهم الدعوة من أشرس حملة يقوم بها الطَّاغوت لاستئصال الدعوة.

● الشيخ محمد مهدي الأصفي

في قضية الفتية (أصحاب الكهف)، الذين آمنوا بالله، وخرجوا على قومهم وأعلنوا دعوة التوحيد في أجواء البلاط نلتقي نحن بالظاهرتين عينهما (الاعتزال والهجرة).

فلم يجد هؤلاء الفتية لأنفسهم من سبيل، بعد أن أعلنوا الدعوة إلى التوحيد في أجواء القصر، غير أن يعتزلوا أقوامهم وما يعبدون من دون الله ليأوا إلى الكهف.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف/١٦].

الاعتزال والهجرة عمليًا بتر واسعان للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والوطنية والأسرية، وتبديلها بنسيج آخر من العلاقات، ولذلك فهما من أشق الأعمال على نفس الإنسان.

وقلما يشقُّ على الإنسان شيء كما يشقُّ عليه أن يتر علاقته الأسرية والوطنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويستبدلها بأخرى من نسيج آخر ونوع آخر.

ولذلك فقد أجزل الله تعالى ثواب الاعتزال والهجرة، إذا كانتا لله، وجعلهما من منازل رحمته في حياة الإنسان.

ففي قصة الفتية من أهل الكهف يقول تعالى:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف/١٦].

ولمَّا تجهَّم قوم إبراهيم عليه السلام، وفيهم عمه، بوجهه، وهذَّوه بالرجم لئن لم ينته من دعوته هذه، وأمروه بأن يهجرهم، ويتعد عنهم... عزم إبراهيم عليه السلام على أن يعتزلهم، ويقاطعهم، ويعزل حياته عن حياتهم.

﴿قال: أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك، واهجرني مليًا﴾ [مریم/٤٦].

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

﴿قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَرَىٰ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدَعَاءِ رَبِّي شَاقِيًّا﴾ [مريم/ ٤٧ و ٤٨].

ويذكر القرآن أن إبراهيم عليه السلام عندما اعتزل قومه وما يعبدون من دُون الله، رزقه الله تعالى إسحاق ويعقوب، وجعلهما نبين، ووهبهم من رحمته ما يشاء، وجعل لهم لسان صدق في الصادقين.

﴿فَلَمَّا اعْتَرَىٰ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم/ ٤٩ و ٥٠].

٧ - إعلان الحجّ في الناس:

وأخطر عمل قام به إبراهيم عليه السلام، بعد الدّعوة إلى التوحيد، هو الدّعوة إلى الحجّ، وإعلان الحجّ في الناس، كما أمره الله تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج/ ٢٧].

لقد أعلن إبراهيم عليه السلام التوحيد في الناس أولاً، وكانت هذه هي المرحلة الأولى من عمل إبراهيم وهي أشقها وأصعبها بالتأكيد. وفي المرحلة الثانية، بعد أن استقر التوحيد في قلوب أمّة من الناس أعلن إبراهيم عليه السلام عن إقامة قاعدة صلبة للتوحيد على وجه الأرض في المسجد الحرام، وهي الكعبة التي جعلها الله تعالى قياماً للناس. ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ [المائدة/ ٩٧].

وقد أقام خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بذلك للتوحيد أساساً صلباً على وجه الأرض، وجعل من الحجّ إلى البيت تجمّعاً بشرياً للمؤمنين على وجه الأرض يتجمع إليه الناس من بقاع شتى من الأرض كما وعده الله تعالى بذلك. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج/ ٢٧].

وحقّق إبراهيم الخليل عليه السلام بإقامة الكعبة وإعلان الحجّ استقرار التوحيد على وجه الأرض وفي التاريخ.

فكان الحج، منذ أن شرّعه الله تعالى على لسان إبراهيم، ودعا إليه، حصناً للتوحيد ومثابةً وأمناً لحملة التوحيد، يجمع الموحّدين من بقاع شتى من الأرض، ويجعل منهم قوة تردع العدوان عن حركة التوحيد ومن البيت الحرام وحصناً وأمناً يثوب إليه المؤمنون في كل عام.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة/ ١٢٥].

وعهد الله تعالى إلى إبراهيم تطهير البيت وإعداده للطائفين والعاكفين الركع السجود.

﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة/ ١٢٥].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج/ ٢٦].

فكان إبراهيم عليه السلام الرائد الأول للتوحيد، بالمعنى الحركي السياسي الذي استقرّ على وجه الأرض، منذ أن جعله الله إماماً للتوحيد على أرجاء المعمورة. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌكَ لِّلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وكان إبراهيم عليه السلام أول من وضع للتوحيد أساساً بشرياً، يجمع الموحّدين ويجعل منهم كتلة قوية مرصوفة تواجه تحديات الشرك بكفاءة وقوة، فكان هو حقاً أبا الموحّدين وأول من سمّانا مسلمين.

﴿مِلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج/ ٧٨].

ثالثاً: كلمات الفتنة والابتلاء:

تعرض إبراهيم عليه السلام لفتن وابتلاءات صعبة وعسيرة في مسيرة الدعوة، وثبت في هذه الفتن حتى شهد الله تعالى له بأنه آمنه، وتلك شهادة من الله تعالى لابراهيم، لا تضاهيها شهادة. ويسجل له القرآن ثلاث كلمات في هذه الفتن والابتلاءات، هي:

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

١ - الصَّبْر .

٢ - التَّوَكُّل .

٣ - التَّسْلِيم .

وفي ما يلي توضيح لهذه الكلمات الثلاث التي أتمهنَّ إبراهيم عليه السلام في خضم الفتن والمحن التي تعرَّض لها .

٨ - كلمة الصَّبْر :

تعرَّض إبراهيم عليه السلام لواحدة من أعظم المحن التي تعرَّض لها الأنبياء عليهم السلام فقد أجمع قومه أمرهم على أن يلقوه في النار بمشهد من الناس فجمعوا لذلك حطباً كثيراً، وبالغوا في جمع الحطب، وطلبوا من الناس أن يشترك كل واحد منهم بحسبه في جمع الحطب، ويبدو أنهم كانوا يريدون بذلك إرهاب إبراهيم عليه السلام ليتراجع عن دعوة التوحيد، وإرهاب الناس لثلاثي يميل إليه أحد من قومه . فجمعوا حطباً كثيراً وأشعلوا النار فيه . فكان جحيماً كبيراً وشدوا وثاق إبراهيم عليه السلام ليلقوه في هذه النار بمرأى من الناس ومسمعهم ، وإبراهيم عليه السلام يلقي نظره إلى هذه الجحيم التي يريدون أن يلقوه فيها، وينظر إلى هذا المشهد الحافل من الناس الذين وقفوا ليشهدوا كيف تتلعه النيران وهو ثابت كالطود، لم يهتز، ولم يتردد لحظة واحدة، ولم يجزع، حتى إذا لاقوه في وسط هذه الجحيم جعلها الله عليه برداً وسلاماً .

ولنقرأ هذه القصة المثيرة في القرآن :

﴿قالوا: حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا: يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخْسَرِينَ * ونَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وهبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وجعلناهم أئمةً يهْدُونَ بأمرنا وأوحينا إليهم فعلَ الخيراتِ وإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء/ ٦٨ - ٧٣] .

ووردت القصة في سورة الصافات :

﴿قالوا: ابنوا له بُيُوتًا فَالْقَوْه فِي الْجَحِيمِ * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات/ ٩٧ و٩٨] .

● الشيخ محمد مهدي الأصفي

ويشير القرآن إلى ما رزق الله تعالى ابراهيم من رزق وما أنزل عليه وعلى ذريته من رحمة وبركة بما صبر في هذه المحنة العظيمة، ونعيد قراءة آيات سورة الأنبياء لننظر في المواهب التي آتاه الله تعالى إيّاها في هذه المحنة:

- ١ - قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم .
- ٢ - وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين .
- ٣ - ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين .
- ٤ - وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلاً .
- ٥ - وكلاً جعلنا صالحين .
- ٦ - وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا .
- ٧ - وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .
- ٨ - وكانوا لنا عابدين .

نتائج الصّبر في حياة الدّعاة

وخير ما يواجه به الدّعاة هذه الفتن هو الصّبر، فإن غاية الذين يفتنون المؤمنين بأمثال هذه الفتن هي استنفاد قوتهم وصبرهم ومقاومتهم في مسيرة الدعوة .
ولذلك فإن الصبر، في مواجهة أمثال هذه الفتن، خير ما يمكن أن يواجه به الأنبياء ﷺ وأنصارهم من الدعاة إلى الله هذه الفتن . وقد جعل الله تعالى «الصبر» مصدر كثير من الرحمة والخير والنصر .

ويذكرنا القرآن ببركات الصبر وآثاره في حياة المؤمنين، ومن هذه البركات:

● معية الله للمصابرين

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة/ ١٥٣] .

● بشارة الصّابرين برحمة الله وصلواته

يقول تعالى: ﴿ . . . وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة . . . ﴾ [البقرة/ ١٥٥، ١٥٦] .

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

- بالصبر والتقوى يدفع المؤمنون كيد الأعداء ومؤامراتهم
يقول تعالى: ﴿وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران/ ١٢٠].
- وبالصبر والتقوى يستنزل المؤمنون الإمداد والتأييد من الله تعالى: ﴿بلى إن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمددكم ربُّكم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران/ ١٢٥].

- وبالصبر يرزق الله المؤمنين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة
يقول تعالى: ﴿وما كان قولُهُم إلا أن قالوا: ربَّنَا اغفر لنا ذُنُوبَنَا وإسْرَافَنَا فِي أمرِنَا وثَبِّتْ أقدامَنَا وانصُرْنَا عَلَى القوم الكافرين * فَآتاهم الله ثوابَ الدنيا وحُسن ثواب الآخرة والله يحبُّ المحسِنين﴾ [آل عمران/ ١٤٧ و ١٤٨].

- والصبر يأتي بالنصر
يقول تعالى: ﴿ولقد كذَّبْت رِسلٌ مِّن قبلك، فَصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا، وأوذوا حتى آتَاهُم نَصْرُنَا﴾ [الأنعام/ ١٣٤].
- ويقول تعالى: ﴿أن يكن منكم عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال/ ٦٥].

- والصابرون يسعدون بسلام الله تعالى والملائكة
يقول تعالى: ﴿سلامٌ عليكم بِما صَبَرْتُمْ، فنعمُ عِقبى الدَّارِ﴾ [الرعد/ ٢٤].
- وللصابرين عند الله أجر بغير حساب

يقول تعالى: ﴿إنما يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجرَهُم بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [الزمر/ ١٠].

٩ - كلمة التوكُّل:

ومن أفضل أنماط التعامل، مع الله، أن يجعل الإنسان الله تعالى وكيلاً عن نفسه على نفسه وعلى ما يحب وما يملك وما يتولَّى أمره... كما يجعل الناس بعضهم بعضاً وكلاء على أموالهم وممتلكاتهم وهذا هو التوكيل والتوكُّل.

والتوكيل والتوكُّل يعبر عن ثقة الإنسان بمن جعله وكيلاً عن نفسه في ما يحب ويملك.

● الشيخ محمد مهدي الأصفي

ولما كان «التوكل» على الله على هذا النحو، أي في أعز الأشياء، وأغلاها على الإنسان، وهو نفسه ومصيره وعاقبته ودينه وآخرته، فهو يعبر عن أعلى درجات الثقة بالله تعالى.

وهو، في الوقت نفسه، من أفضل أنماط التعامل مع الله، كما ذكرنا، لأن الإنسان، كما يقول القرآن، خليفة الله في الأرض.

فإذا جعل الإنسان الله تعالى خليفة عنه ووكيلاً له على نفسه كانت هذه «الخلاقة» متبادلة بين الله تعالى وبين عبده، وهذا من أفضل أنماط العلاقة المتبادلة مع الله والتعامل معه.

ونحن في غنى عن القول إن التوكل على الله تعالى ليس بمعنى أن يهمل الإنسان الأسباب التي جعلها الله تعالى وسائل إلى رحمته في الدنيا والآخرة، فلا بد من أن يتمسك الإنسان بجميع الوسائل التي جعلها الله تعالى في حياة الإنسان، ولكن بشرط ألا تحجبه عن الله، وأن يتخذها وسيلة وذريعة إلى رحمته، وتبقى ثقة الإنسان في جميع مراحل الحياة بالله تعالى وحده.

وقد عرّض الله تعالى عبده وخليله ورسوله إبراهيم لفتنة عظيمة وامتنحن(*) فيها ثقته وتوكله عليه؛ وذلك عندما طلب منه أن يخرج بزوجه هاجر ورضيعها إسماعيل عليه السلام إلى وادٍ غير زرع، ويتركهما هناك لله تعالى وحده، ويجعل الله تعالى وكيلاً عنه عليهما، ويدعهما في تلك الصحراء القاحلة غير ذات الزرع، وينصرف عنهما إلى فلسطين.

فترك إبراهيم عليه السلام زوجته ورضيعها إسماعيل في ذلك الوادي القفر غير ذي الزرع، وترك لهما ما تسر له من ماء وطعام، وودّعهما، وتركهما إلى الله، لا ينظر وراءه ليرى أنظار تلك المرأة الصالحة تتابعه في ثقة واطمئنان بمن أودعهما إبراهيم عليه السلام عنده.

فغادرهما إبراهيم عليه السلام وملء نفسه وقلبه الثقة بالله تعالى والتوكل عليه، وهو يقول:

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيَتِيمُوا
الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾
[إبراهيم/ ٣٧].

والملائكة ينظرون إلى إبراهيم عليه السلام في هذه الفتنة العظيمة، يكبرون ثقتهم
بالله، ويعظمون توكله عليه، ويؤمنون على دعائه. وقد استجاب الله تعالى لدعاء
عبده وخليله في تلك اللحظات الحساسة من التاريخ.

١٠ - كلمة التسليم:

وهي أعظم الكلمات التي أتمهن إبراهيم عليه السلام، طراً، من دون ريب. وكلُّ
الكلمات التي أتمهن إبراهيم عليه السلام عظيماً، ولكنَّ أعظمهن، من دون شك،
كلمة التسليم. وذلك عندما أمره الله تعالى في المنام بأن يذبح ابنه إسماعيل، وهو
يومئذ شابٌّ يافعٌ يخرج مع أبيه إبراهيم يسايره في ذلك الوادي، بعد أن عمره الله
تعالى بقومٍ من جرهم.

فيستنشق إبراهيم عليه السلام ريحه، ويمتغ ناظره بجماله، ويملا سمعه بحديثه
ونجواه.

فلما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه إسماعيل، لم يصد، ولم يتردد في أن
يفتح ابنه بذلك، وتقبَّل أمر ربه قبولاً حسناً.

﴿فلما بلغَ معه السَّعي، قال: يا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا
تَرَى. قال: يا أبتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾
[الصافات/ ١٠٢].

ولست أعرف أيهما كان أقوى من الآخر في ذات الله، وأربط جاشاً وأقوى
فؤاداً: الأب الذي يفتح ابنه بأنه يريد أن يذبحه، أو الإبن الذي تلقى هذا الأمر من
أبيه بالتسليم والانقياد الكامل لأمر الله تعالى. ﴿قال: يا أبتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

وأعجب من ذلك كله أن لا يرى هذا الشاب اليافع لنفسه في هذا التسليم
العظيم وهذا الصبر الكبير شأناً يُذكر، فلا يرى غير مشيئة الله تعالى مشيئة، ولا يرى

● الشيخ محمد مهدي الأصفي

غير إرادة الله تعالى إرادة، فيختفي إسماعيل من هذا المشهد العظيم، وتبرز إرادة الله تعالى ومشيتته في حوارته مع أبيه. فيقول له في ثقة واطمئنان وتسليم وانقياد. ﴿سَمَّحِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

وهو يريد أن يطيب قلب أبيه فلا يجزع لما أمره الله تعالى به.

لست أعرف أيهما أربط جاشاً وأقوى فؤاداً، وأسكن نفساً لأمر الله، وأكثر تسليماً وانقياداً لحكمه، الوالد أو الولد؟ وليس لنا أن نقول بين يدي هذا المشهد العظيم الذي خشعت لجلاله ملائكة الرحمن وحقّت به، وضجّوا حوله بالتسبيح والدعاء إلا أن يقول ما قاله ربّ العالمين: ﴿فلما أسلما﴾. كلّ منهما أسلم: أسلم الوالد نفسه لله، وأسلم الولد نفسه لله، ولم يذكر الله تعالى عن هذا المشهد العظيم غير هذه الكلمة، وناهيك بها من كلمة وشهادة من ربّ العالمين بحقّ عبديه وخليليه ابراهيم وإسماعيل ﷺ. ﴿فلما أسلما﴾.

واحتفل الملائكة يومئذ بهذا التسليم العظيم، بقي هذا الوسام الإلهي على ناصية كلّ من إبراهيم وإسماعيل ﷺ منذ تلك الساعة إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة، يرده أجيال الموحدين: جيلاً بعد جيل. «فلما أسلما»

أسلم الوالد والولد، وتمّ كلُّ شيءٍ فلا اعتراض من أي منهما، ولا تردّد، ولا تحرج، ولا ريب، ولا ضعف. تسليمٌ مطلق لأمر الله، وانقياد كامل لحكمه من الوالد والولد، ثم يُبرز القرآن دفعة واحدة هذا المشهد العظيم في ذلك الوادي القفر، الذي لم يحضره يومئذٍ أحد غير الذابح والذبيح، وحضره من الملائكة ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وهم يضجّون إلى الله بالدعاء والتسبيح أن يفدي إسماعيل بذبح عظيم.

وإليك هذا المشهد العظيم كما يصوره القرآن:

﴿فلما أسلما وتلّٰه للجبين﴾ (***) [الصافات/١٠٣].

مدّد الوالد ولده على أحد جانبي جبهته وأجرى السكين على رقبتة، والتقطت ذاكرة التاريخ هذا المشهد العظيم ونقلته إلى أجيال الموحدين جيلاً بعد جيل. ليعلموا الثمن الكبير الذي دفعه أبواهم من قبل ابراهيم وإسماعيل لمسيرة التوحيد.

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

وأعلن الله تعالى للملأ من ملائكته، ولأجيال الموحّدين، هذه الشهادة العظيمة لابراهيم. ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات/ ١٠٤ - ١٠٦].

وناهيك بها من شهادة من الله تعالى لابراهيم. ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. وليس للعبد من الله موقفٌ أفضل وأجل من «الصدق».

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب/ ٣].

وهو يوم القيامة: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر/ ٥٥].

فإذا صدق العبد في علاقته بالله وتعامله معه بوأه الله تعالى في مقعد صدق عنده، وفي جواره وبقربه. ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

وليس بعد هذه الشهادة شهادة، ولا بعد هذا القرب قرب، ويعلن الله تعالى لابراهيم ﷺ أنه تعالى قد تقبله في المحسنين، ورفع له إلى موقع المحسنين وجزاه بما يجزي به المحسنين. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. وابراهيم ﷺ إمام المحسنين. ثم يعلن الله تعالى لملائكته ولأجيال الموحّدين: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات/ ١٠٦].

وليس في ما ابتلى الله تعالى به عبده، وخليله ابراهيم بلاء أبلى وأمتن وأعظم من هذا البلاء.

واستجاب الله لدعاء ملائكته، وهم يومئذ يضحجون إليه تعالى بالدعاء، وفدى الذبيح بذبح عظيم.

﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات/ ١٠٧].

وتباشرت به الملائكة يومئذ واحتضن الوالد الولد، وراحا يبكيان سروراً وشكراً لله تعالى على هذا الفداء، ويبكيان ويحمدان الله تعالى على ما رزقهما من «التسليم»، ويثبت الله تعالى في ذاكرة التاريخ هذه التحية الجميلة من الله رب العالمين لعبده وخليله ابراهيم وترددها أجيال الموحّدين، من أبناء ابراهيم وإسماعيل. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات/ ١٠٨ - ١١١].

شهادة الله تعالى لإبراهيم

ربما تكون هذه هي الكلمات العشر التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام والتي أتمهن إبراهيم .

لست أدعي أنها هي الكلمات التي يقول عنها تعالى :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة/ ١٢٤].

ولكنني أقول إن تلك الكلمات، بعض هذه الكلمات هي وأقول إن الله تعالى ابتلى بها عبده وخليله إبراهيم عليه السلام فأتمهن إبراهيم .

وفي نهاية هذه الكلمات تأتي الشهادة من الله تعالى، وكفى بها شهادة، وناهيك بها. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتمهن جميعاً، وليس بعضاً، وأتمهن من دون تقصير، ومن دون ضعف .

وتلك شهادة من رب العالمين لعبده وخليله إبراهيم عليه السلام .

جزاء إبراهيم عليه السلام من الله

وقد جرى الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، كما هو شأنه تعالى، جزاء الجميل بالجميل، وهو الشكور، الوفي، الجميل .
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وجزاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام عظيم وكبير، ونحن نشير في هذا المقال إلى عشر نقاط فقط من نماذج الجزاء الإلهي لإبراهيم عليه السلام ممّا ورد ذكره في القرآن، وخلّده الله تعالى في ذاكرة الموحدين من أبناء إبراهيم عليه السلام وهذه النقاط هي :

١ - اصطفاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام للإمامة :

يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة/ ١٢٤].

وهذه «الإمامة» غير «النبوة» فقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً عندما ابتلاه الله تعالى ببعض هذه الكلمات .

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

وهي إمامة التوحيد، والقيادة السياسية لحركة التوحيد على وجه الأرض ولا نفهم نحن إمامة سياسية لحركة التوحيد على وجه الأرض قبل إبراهيم عليه السلام ، والله أعلم .
يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾
[البقرة/ ١٣٠].

٢ - اصطفاء ذرية إبراهيم عليه السلام للإمامة والنبوة:

وقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى عندما وهبه الإمامة أن يجعلها في ذريته، فاستجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله، واستثنى من ذلك الظالمين من ذريته: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، قَالَ: لَا يِنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة/ ١٢٤].

ويقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، نَافِلَةً، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء/ ٧٢ و٧٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ، وَنُوحًا، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ، وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
[آل عمران/ ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا، وَإِبْرَاهِيمَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾ [الحديد/ ٢٦].

٣ - إبراهيم عليه السلام أسوة وقدوة للأجيال:

وجعل الله تعالى إبراهيم أسوة حسنة وقدوة لأجيال الموحدين، وبذلك فقد جعل منه مقياساً للتوحيد والتقوى في حياة الموحدين. يقيسون به توحيدهم وتقواهم وعملهم في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة/ ٤].

٤ - واتخذ الله إبراهيم خليلاً:

يقول تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٢٥].

وناهيك به من موقع ومقام لابراهيم عليه السلام عند الله تعالى، ولم يذكر الله تعالى في كتابه هذا الموقع لأحد من عباده الصالحين غير ابراهيم عليه السلام .

٥ - البصيرة بالملكوت واليقين :

ورزق الله تعالى إبراهيم البصيرة بالملكوت .

﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوتَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وليكون من الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام/ ٧٥].

٦ - تخليد ذكر ابراهيم ﷺ في الكتاب :

«واذكر في الكتاب إبراهيم إنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» [مريم/ ٤١].

٧ - واصطفاه الله رائداً لحركة التوحيد :

ومن يأتي من الموحدين بعد ابراهيم ﷺ فهو من ملته :

﴿قُلْ: صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران/ ٩٥].

وكل الموحدين من بعد إبراهيم هم على خطه ومن ملته ﷺ .

يقول تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل/ ١٢٣].

﴿قُلْ: إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام/ ١٦١].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٢٥].

﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِيهَةٍ نَفْسَةٍ﴾ [البقرة/ ١٣٠].

والانتماء إلى ابراهيم انتماء عمل وليس انتماء نسب .

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/ ٦٨].

وقد جعل الله تعالى أحيال الموحدين أبناء ابراهيم ﷺ . فقال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج/ ٧٨].

● الكلمات الإبراهيمية العشر في القرآن الكريم

فهو أبو الإسلام، دعا إليه ورفع شعاره، وهو أول المسلمين، وهذه التسمية تعود إليه ﷺ. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج/٧٨].

٨ - آتاه الله تعالى الرشد :

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء/٥١].

٩ - حسن ثناء الله تعالى على إبراهيم ﷺ :

وقد خصَّ الله تعالى إبراهيم بثناء طيب، خلَّد ذكره في كتابه. يقول تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل/١٢٠].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود/٧٥].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة/١١٤].

﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم/٣٧].

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص/٤٥].

١٠ - وسَلَّم الله تعالى على إبراهيم ﷺ :

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات/١٠٩].

وهذه تحية جميلة من الله العظيم والجميل، لعبده وخليله ورسوله إبراهيم ﷺ.

فسلام عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً، ورزقنا الله تعالى بعضاً

من صدقه وتسليمه ووعيه ومعرفته وبصيرته بالله تعالى.

الهوامش:

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، ج ١، ص ٤٥٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق الشيخ عزيز الله العطاردي بإشراف، موسوعة نهج البلاغة، دمشق: المستشارية

الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، خطبة رقم ٥٥، ص ٥٧.

(*) الامتحان هنا ليس بمعنى الاختبار كما يكون بين الناس، وإنما هو مشتق من المحنة والمعاناة.

(*) تله: صرعه. والجبين: أحد جانبي الجبهة، والمعنى: فلما صرعه على جبينه.